

مجلة

كلية الدراسات الإسلامية والعربية

إسلامية فكرية ثقافية محكمة

العدد

السادس عشر

١٤١٩ هـ

١٩٩٨ م

شبهات حول تفسير الرازي..

«عرض ومناقشة»

د/ عيادة بن أيوب الكبيسي

أستاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد

بكلية الدراسات الإسلامية والعربية بدبي

الحمد لله الذي أنزل كتابه بالحق المبين، ووكل إلى نبيه مهمة التبيين، فبيّن ﷺ ما دعت الحاجة إليه في عصره، وترك لمن بعده من أهل العلم والفهم في كل عصر أن يفهموا عن ربهم ما خاطبهم به، فبقي القرآن الكريم وحياً ينبض بالحياة، يخاطب كل جيل بآياته الباهرات، التي لا تخلق على كثرة الردّ، ولا يحجبها القدم عن العطاء المتجدد.

فصلى الله وسلم وبارك علي ذلك النبي الكريم، وعلى آله وأصحابه والتابعين، وبعد:

فقد كان الإمام الرازي ـ رحمه الله تعالى ـ من العلماء الأفذاذ، ومن أذكياء العالم، المشهود لهم بالسبق والتقدم، لا سيما في العلوم العقلية، التي برّ بها الأقران، وأفحم فلاسفة الزمان.

فلا غرو ان بنى تفسيره الكبير علي منهج العقل الذي وهبه الله، باذلاً مجهود فكره في فهم النصوص القرآنية، وادراك مقاصدها ومراميها، محققاً الدفاع عن القرآن الكريم على ضوء ذلك.

وليس الغرض من هذا البحث، الحديث عن الإمام الرازي، ولاعن تفسيره الكبير وبيان منهجه فيه،إنما الدافع لذلك دفع ما يدور حول هذا التفسير من إشكالات كانت ولا تزال تشغل بال كثير من الدارسين لرجال التفسير ومناهجهم، وهي :

١ ـ قضية إكمال الرازي تفسيره .

٢ ـ مقولة : « فيه كل شيء إلا التفسير» .

٣ ـ أنه كان يورد شبه المخالفين في المذهب والدين علي غاية ما يكون من التحقيق، ثم يورد مذهب أهل السنة والحق على غاية من الوهاء والضعف .

وقبل الدخول بتفصيل الكلام عن هذه الأمور، يستحسن أن نبدأ بنبذة مختصرة في التعريف بهذا الإمام الجليل رحمه الله تعالى ـ فنقول :

هو الإمام الجليل، العلامة [1] محمد بن عمر بن الحسين بن علي القرشي، التيمي، البكري، الطبرستاني، الرازي ، يكنى بأبي المعالي وأبي عبد الله، ويلقب بفخر الدين، ويعرف بابن خطيب الري الشافعي .

ولد بالري سنة ٥٤٣هـ، وقيل :٥٤٤ هـ ونشأ بها، وقد حظي بتربية والده العالم الكبير الملقب بضياء الدين، الذي لازمه ودرس عليه، وكان معجباً به، متأثراً بفكره وآرائه، فأخذ عنه علم الكلام والفصاحة وغيرهما من العلوم التي برع فيها، وأخذ . أيضاً . عن غيره من علماء عصره، ورحل وتجوّل على عادة علماء زمانه، حتى نبغ وبزّ أقرانه، وذاع صيته، وعلت شهرته، فأصبح إماماً في مختلف العلوم العقلية واللغوية.

وكان إلى جنب ذلك واعظاً مؤثراً، صادق اللهجة، لا يهاب في وعظه السلاطين ولا غيرهم، وكان يلحقه الوجد في حال الوعظ، يكثر البكاء، فيؤثر في مستمعيه، يروى أنه كان يعظ في داره فحضر السلطان شهاب الدين الغوري يوما، وقال الرازي موجهاً كلامه اليه في ختام وعظه:

يا سلطان، لا سلطانك يبقى ولا تلبيس الرازي، « وأنّ مردنا الى الله» [2].. فبكى شهاب الدين حتى رحمه الناس لكثرة بكائه .

وكان ذا قدم راسخة في التقوى والتوكل والاعتماد على الله تعالى في جميع شؤونه، يقول عن نفسه :

«والذي جرّبته من أول عمري إلى آخره، أن الإنسان كلما عوّل في أمر من الأمور على غير الله صار ذلك سبباً الى البلاء والمحنة والشدة والرزيّة، وإذا عوّل العبد على الله ولم يرجع إلى أحد من الخلق، حصل ذلك المطلوب على أحسن الوجوه، فهذه التجربة قد استمرت لي من أول عمري إلى هذا الوقت الذي بلغت فيه السابع والخمسين، فعند هذا استقر قلبي على أنه لا مصلحة للإنسان في التعويل على شيء سوى فضل الله واحسانه، ويقول :

ولقد جربت في أحوال نفسي، أنه كلما قصدني شرير بشرّ ولم أتعرّض له، وأكتفي بتفويض

(١) : انظر ترجمته في : البداية والنهاية ٤٧/١٣ . ٤٩ ، تاريخ الإسلام ص ٢٠٤ . ٢١٥ و العبر ١٤٢/٣، طبقات المفسرين للسيوطي ص ١٠٠ . ١٠١، وللداودي ٢١٥/٢ . ٢١٨، عيون الأنباء ص ٤٦٢ . ٤٧٩ ، طبقات الشافعية الكبرى ٨١/٨ . ٩٣، وفيات الأعيان ٢٤٨/٤ . ٢٥٢، النجوم الزاهرة ١٩٧/٦، الوافي بالوفيات ٢٤٨/٤، مرأة الجنان ٧/٤، شذرات الذهب ٢١/٥ . ٢٢، مفتاح السعادة ١١٦/٢ الكامل لابن الأثير ٢٨٨/١٢، وغيرها من كتب التراجم.

(٢) سورة غافر آية: ٤٣ .

الأمر إلى الله، فإنه سبحانه يقيّض أقواماً لا أعرفهم البتة يبالغون في دفع ذلك الشر» .

وقد خلف الرازي ثروة علمية ضخمة، وأثرى المكتبات المتنوعة بكتب نافعة منها هذا التفسير الكبير المسمى « مفاتيح الغيب».

وقبل أن أختم هذه الكلمات المعدودة عن هذا الإمام الذي أولاه الباحثون عنايتهم ودراساتهم المتعددة[1] وقالوا عنه : أنه كان إمام الدنيا في عصره ، أود أن أذكر بعض الفقرات من وصيته المؤثرة، فمن ذلك قوله في مفتتحها :

[بسم الله الرحمن الرحيم . يقول العبد الراجي رحمة ربه، الواثق بكرم مولاه محمد بن عمر ابن الحسين الرازي وهو في آخر عهده بالدنيا، وأول عهده بالآخرة، وهو الوقت الذي يلين فيه كل قاس، ويتوجه إلى مولاه كلّ آبق : اني أحمد الله تعالى بالمحامد التي ذكرها أعظم ملائكته في أشرف أوقات معارجهم، ونطق بها أعظم أنبيائه في أكمل أوقات مشاهداتهم، بل أقول : كل ذلك من نتائج الحدوث والامكان، وأحمده بالمحامد التي تستحقها ألوهيته، ويستوجبها لكمال الموهبة عرفتها أو لم أعرفها، لا مناسبة للتراب مع جلال رب الأرباب، وأصلي على الملائكة المقربين، والأنبياء والمرسلين، وجميع عباد الله الصالحين ...

وقوله : أقول : يا إله العالمين، إني أرى الخلق مطبقين على أنك أكرم الأكرمين، وأرحم الراحمين، ذلك ما مرّ به قلمي، أو خطر ببالي، فأستشهد علمك وأقول : إن علمت أني ما سعيت إلا في تقرير ما اعتقد أنه هو الحق ، وتصورت أنه الصدق، فلتكن رحمتك مع قصدي لامع حاصلي، فذاك جهد المقل وأنت أكرم من أن تضايق الضعيف الواقع في الذلة فأغثني وارحمني، واستر زلتي وامح حوبتي، يا من لا يزيد في ملكه عرفان العارفين، ولا ينتقص بخطأ المجرمين . وأقول: ديني متابعة سيد المرسلين، وكتابي هو القرآن العظيم، وتعويلي في طلب الدين عليهما .

اللهم يا سامع الأصوات ، ويا مجيب الدعوات، ويا مقيل العزات، ويا راحم العبرات، ويا قيام المحدثات والمكنات، أنا كنت حسن الظن بك، عظيم الرجاء في رحمتك، وأنت قلت : أنا عند ظن

---

(١) : من الأبحاث المهمة حول الرازي. رحمه الله تعالى. : الرازي مفسراً. رسالة دكتوراه للدكتور محسن عبدالحميد، فخر الدين الرازي وأراؤه الكلامية والفلسفية. رسالة ماجستير نوقشت ببغداد، مذهب الرازي في إعجاز القران. بحث للدكتور علي محمد حسن العماري، فخر الدين الرازي. تمهيد لدراسة حياته ومؤلفاته. بحث للأستاذ الدكتور جورج قنواتي، الإمام فخر الدين الرازي حياته وأثاره. علي محمد حسن العماري، فخر الدين الرازي. للدكتور فتح الله خليف، إضافة إلي الأبحاث الكثيرة في ثنايا الكتب المختلفة والدراسات المتنوعة .

عبدي [١]، وأنت قلت : «أمن يجيب المضطر إذا دعاه [٢]»، وأنت قلت : «وإذا سألك عبادي عني فإني قريب [٣] »، فهب أني ما جئت بشيء، فأنت الغني الكريم، وأنا المحتاج اللئيم، وأعلم أنه ليس لي أحد سواك، ولا أحد محسناسواك، وأنا معترف بالزلة والقصور والعيب والفتور، فلا تخيب رجائي، ولا تردّ دعائي، وآجعلني آمناً من عذابك قبل الموت وعند الموت وبعد الموت .. الى أن يقول في آخر وصيته. بعد أن طلب أن يكفن ويدفن على شرط الشرع وأن يقرؤوا عليه بعد دفنه ما قدروا عليه من آيات القرآن. :

ثم ينثرون التراب عليّ، وبعد الاتمام يقولون : يا كريم جاءك الفقير المحتاج فأحسن إليه، واعطف عليه، فأنت أكرم الأكرمين، وأرحم الراحمين، وأنت الفعال به وبغيره ما تشاء، فآفعل به ما أنت أهله، فأنت أهل التقوى وأهل المغفرة [٤] ..

وللإمام الرازي. رحمه الله تعالى. أشعار كثيرة بالعربية والفارسية، ومن شعره بالعربية :

نـهـايـة إقـدام الـعـقـول عِـقـال ... وأكثر سـعـي الـعـالمين ضـلالُ
وأرواحنا في وحشة من جسومنا ... وحـاصـل دنـيـانـا أذىً ووبـالُ
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أنْ جمعنا فيه قيل وقالوا
وكم من جبال قد علت شرفاتها ... رجـالٌ فـزالـوا والجبـالُ جـبـالُ
وكم قد رأينا من رجال ودولة ... فبادوا جميعاً مُزْعجين وزالوا [٥]

ومن ذلك قوله :

إليك إله الخلق وجهي ووجهتي ... وأنت الذي أدعوه في السر والجهر
وأنت غـيـاثـي عـنـد كـلّ مـلـمـة ... وأنت ملاذي في حياتي وفي قبري

وبعد عمر حافل بالجد والنشاط، وحبّ العلم والحرص عليه ، انتقل إلى رحمة الله تعالى التي

---

(١) : حديث قدسي أخرجه مسلم عن أبي هريرة. رضي الله عنه. برقم ٢٦٧٥، ولفظه بتمامه : [أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حيث يذكرني، إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، وإن تقرب مني شبراً تقربت إليه ذراعاً، وإن تقرب إلى ذراعاً تقربت منه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة] .كتاب الذكر والدعاء. باب : الحث على ذكر الله تعالى ٢٠٦١/٤.

(٢) : سورة النمل ، آية : ٦٢ .

(٣) : سورة البقرة الآية : ١٨٦.

(٤) : انظر وصيته كاملة في : الوافي بالوفيات ٢٥٠/٤. ٢٥١، عيون الأنباء ص ٤٦٦. ٤٦٨، طبقات الشافعية الكبرى٩٠/٨. ٩٢ وغيرها .

(٥) : في البيت الأخير في بعض المراجع : جبال بدل رجال، ومسرعين بدل مزعجين.

أمّل بها ورجاها كثيراً، وذلك يوم الاثنين الذي وافق يوم عيد الفطر بمدينة هراة [١] من سنة ٦٠٦ للهجرة، وقيل : إنّ سبب وفاته : ان الكرامية [٢] . الذين دار بينه وبينهم جدل كثير . سقوه السمّ فمات شهيداً . ان شاء الله تعالى . رحم الله تعالى الإمام الرازي وغفر له ورضي عنه وعنا معه . آمين . .

الشبهة الأولى: هل أكمل الرازي تفسيره ؟

لا نزاع بين أحد من أهل العلم في أنّ تفسير « مفاتيح الغيب» قد نال شهرة واسعة بين مختلف الأوساط العلمية، وأن الجميع قد شهدوا له بعلو الكعب ودقة التحقيق . وإن كان ذلك لا يخلو من بعض الاعتراضات على ما فيه من توسع واطناب . ، وإنما النزاع في قضية إكمال الرازي . رحمه الله تعالى . لهذا التفسير .

فرأيت أن أسهم في دراسة هذه القضية دراسة تفصيلية تقوم على ثلاث فقرات :

الأولى : في ذكر الذاهبين إلى عدم اكمال الرازي تفسيره مع أدلتهم .

الثانية : فيمن يرى أنه أكمله بنفسه مع أدلتهم .

والثالثة : في المناقشة والترجيح .

أما عن الأولى فنقول :

ذهب بعض العلماء من المتقدمين والمتأخرين الى أن الإمام الرازي صاحب التفسير الكبير « مفاتيح الغيب» لم يكمله، ومن هؤلاء العلماء : الامامان الحافظان شمس الدين الذهبي [٣]، وابن

(١) : هراة . بفتح الهاء والراء . : مدينة عظيمة مشهورة من أمهات خراسان، قال ياقوت: لم أربخراسان عند كوني بها سنة ٦٠٧هـ . أي بعد وفاة الرازي بسنة . مدينة أجل ولا أعظم ولا أحسن ولا أكثر أهلاً منها، وقال في صفتها: فيها بساتين كثيرة ، ومياه غزيرة، وخيرات كثيرة، ومحشوة بالعلماء، ومملوءة بأهل الفضل والثراء، انظر معجم البلدن ٥/٣٩٦، والأنساب ١٣/٤٠٣، واللباب ٣/٣٨٦. أقول : وتعتبر في عصرنا الحاضر ثاني أكبر المدن في جمهورية أفغانستان الإسلامية.

(٢) : الكرامية . بفتح الكاف وتشديد الراء المفتوحة . : أصحاب أبي عبدالله محمد بن كرام السجستاني المتوفى في القدس سنة ٢٥٥هـ، كانوا ممّن يثبت الصفات إلا أنهم ينتهون فيها إلى التجسيم والتشبيه، وهم يوافقون السلف في إثبات القدر والقول بالحكمة، ولكنهم يوافقون المعتزلة في وجوب معرفة الله بالعقل، وفي أنّ العقل يحسّن ويقبّح قبل الشرع، وعدهم الأشعري من المرجئة لقولهم : الإيمان هو الاقرار والتصديق باللسان دون القلب، وزعموا أن المنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله . كانوا مؤمنين على الحقيقة .

انظر مقالات الإسلاميين ١/٢٢٣ ، الملل والنحل ١/١٠٨، الفرق بين الفرق ص ١٣١ . الفرقان لابن تيمية ص ١٠٤.

(٣) : ذكر ذلك في كتابه تاريخ الإسلام . في حوادث سنة ٦٠٦ هـ ص ٢٠٥.

حجر العسقلاني [1]، وابن أبي أصيبعة [2]، [3]، وابن خلكان [4]، [5]، وابن قاضي شهبة [6]،[7]، وأيدهم في هذا الشيخ الجليل قاسم القيسي [8]، والدكتور محمد حسين الذهبي [9]، والدكتور محمد بسيوني فودة [10]، والدكتور محمود النقراش [11]، والشيخ مناع القطان [12]، وغيرهم.

وحجتهم فيما ذهبوا إليه:

١ ـ وجد على هامش كشف الظنون ما نصه: الذي رأيته بخط السيد مرتضى نقلاً عن شرح الكشف للشهاب: أنه وصل فيه إلى سورة الأنبياء [13].

٢ ـ الفرق في الأسلوب، وفي ذكر أقوال الحكماء والمسائل الرياضية وغيرها، بين ما قبل سورة الأنبياء وما بعدها. ذكر هذا الدكتور محمود بسيوني فودة في كتابه: نشأة التفسير ومناهجه وقال: هذا القول مجرد اجتهاد اسوقه بعد قراءة في النصف الأول وقراءة في النصف الثاني منه، لأنه لا يتصور أن يصل الخويي أو القمولي ـ اللذان قيل إنهما أكملا التفسير ـ إلى علم وسعة عقل الرازي نفسه [14].

٣ ـ ما ورد فيه من العبارات التي لا يمكن أن تصدر من الرازي نفسه.

ومثلوا له بما جاء في تفسير سورة الواقعة، عند قول الله تعالى: «كأمثال اللؤلؤ المكنون»[15]، حيث فيه:

(١): ذكر ذلك في الدور الكامنة ٣٠٤/١ حيث قال في ترجمة أحمد القمولي: وأكمل تفسير الإمام فخر الدين.

(٢): هو الإمام موفق الدين أبي العباس، أحمد بن القاسم ابن خليفة بن يونس السعدي، الخزرجي، المعروف بابن أبي أصيبعة، كان طبيباً ومؤرخاً، وله في ذلك مؤلفات من أشهرها: عيون الأنباء، توفي سنة ٦٦٨هـ.

انظر البداية والنهاية ٢٥٧/١٣، النجوم الزهرة ٢٢٩/٧، الإعلام ١٨٨/١، ١٨٩.

(٣): انظر عيون الأنباء في طبقات الأطباء ص ٦٤٧، حيث قال في ترجمة أحمد بن الخليل الخُويي: ولشمس الدين الخويي من الكتب: تتمة تفسير القرآن لابن خطيب الري.

(٤): هو أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلكان البرمكي الإربلي، أبو العباس، كان مؤرخاً وأديباً، صاحب كتاب: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، من أشهر كتب التراجم، توفي سنة ٦٨١هـ.

انظر البداية والنهاية ١١٣/١١، النجوم الزاهرة ٣٥٣/٧، الإعلام ٢١٢/١.

(٥): انظر وفيات الأعيان ٢٤٩/٤.

(٦): هو أبو بكر أحمد بن محمد بن عمر، تقي الدين المعروف بابن قاضي شهبة الدمشقي، له مؤلفات كثيرة في مختلف الفنون، من أهمها: الإعلام بتاريخ الإسلام، توفي سنة ٨٥١هـ.

انظر شذرات الذهب ٢٦٩/٧، البدر الطالع ١٦٤/١، الضوء اللامع ٢١/١١، ٢٤.

(٧): انظر طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة ٨٣/٢.

(٨): انظر تاريخ التفسير ص ١٣٠.

(٩): انظر التفسير والمفسرون ٢٩٢/١.

(١٠): انظر نشأة التفسير ومناهجه ص ١٨٩.

(١١): انظر مناهج المفسرين ـ التفسير بالرأي ص ٧٤ و ٩٤.

(١٢): انظر مباحث في علوم القرآن ص ٣٦٧.

(١٣): انظر كشف الظنون ٢٩٩/٢، وانظر التفسير والمفسرون ٢٩٢/١.

(١٤): انظر ص ١٨٩ ـ ١٩٠.

(١٥): سورة الواقعة، آية: ٢٣.

وشيء من هذا رأيته في كلام الإمام فخر الدين الرازي - رحمه الله - بعد ما فرغت من كتابة هذا مما وافق خاطري خاطره، على أني معترف بأني أصبتُ منه فوائد لا أحصيها [١] .

وفيه - أيضا - عند تفسير قوله تعالى من نفس السورة : « جزاء بما كانوا يعملون» [٢] .

المسألة الأولى : أصولية ذكرها الامام فخر الدين - رحمه الله - في مواضع كثيرة، ونحن نذكر بعضها ... وقد أجاب عنه الإمام فخر الدين - رحمه الله - بأجوبة كثيرة، وأظن به أنه لم يذكر ما أقوله فيه .... [٣]

قالوا : فهذه العبارات تدل دلالة واضحة على أن القائل هو غير الرازي، وأنه لم يصل إلى هذا الحد من التفسير، وأن مؤلفاً آخر قد شاركه فيه باكمال ما نقص منه - وإن كانوا يختلفون فيمن أكمله - :

الثانية : وذهب فريق آخر من العلماء إلى أن الرازي أكمل تفسيره كله بنفسه، وممن صرح بذلك: الشيخ الفاضل ابن عاشور [٤] ، والدكتور علي محمد حسن العماري [٥]، والدكتور محسن عبدالحميد[٦] .

ويمكن أن نعتبر العلماء الذين اختصروا تفسير الرازي والذين أفادوا منه، من جملة من يرى ذلك - وإن لم يصرحوا به - كالبرهان النسفي والبيضاوي والنيسابوري وغيرهم، لنسبتهم جميع الكلام إليه، ومثلهم الذين نسبوه إليه في تراجمهم له، وهم كُثُر.

وحجتهم فيما ذهبوا إليه:

١ - الاحالات إلى السور المتقدمة والمتأخرة :

وهي كثيرة جداً، مبثوثة في ثنايا التفسير، ممّا يدلّ دلالة واضحة على أنّ الإمام الرازي قد أكمل تفسيره بنفسه.

٢ - التواريخ الكثيرة التي دونها الرازي في نهاية كل سورة - وهي ما بين سنة ٥٩٥ هـ إلى سنة ٦٠٣ هـ - .

٣ - وحدة الأسلوب والمصادر والترجيح، والتوافق التام في المصطلحات، والاتجاه الواحد في

(١) : انظر التفسير الكبير ١٥٦/٢٩ .

(٢) : سورة الواقعة، آية : ٢٤ .

(٣) : انظر التفسير الكبير ١٥٧/٢٩ .

(٤) : انظر التفسير ورجاله ص ٩٠ .

(٥) : انظر الإمام فخر الدين الرازي ص ١٦١ - ١٨٧ .

(٦) : انظر الرازي مفسراً ص ٥٦ .

إبداء الآراء، واختيار العقائد ودفع الشبهات، وكذا أسلوب الأسئلة والأجوبة في إثارة المسائل الفكرية والبلاغية، وطريقة الاستدلال والاستنباط، وما شابه ذلك من الردود والمناقشات[١].

الثالثة : المناقشة والترجيح :

وبعد النظر في أدلة الفريقين، والتأمّل فيها، تبيّن لنا :

أنّ أدلة الفريق الأول غير كافية في الحكم على الرازي بأنه لم يكمل تفسيره بنفسه، وذلك :

١ ـ أنّ ما ذكر في هامش كشف الظنون ، من أنه وصل فيه إلي سورة الأنبياء، مردود بوجوه، منها:

ا ـ الاحالات المذكورة فيما بعد سورة الأنبياء على ما قبلها من السور التي لا خلاف في أنها من تفسير الرازي، وهي كثيرة جداً، فمن ذلك :

ـ قوله في تفسير سورة الشعراء: واَعلم أنا قد بيّنا في سورة الأنعام ...[٢].

ـ وقوله في تفسير سورة العنكبوت : المسألة الثالثة : وقد ذكر تمام ذلك في سورة البقرة، ونزيد هنا عى ما ذكرناه ...[٣]

وقال نحو هذا في تفسير سورة ص [٤].

ـ قوله في تفسير سورة لقمان : وذكرنا في تفسير الأنفال في أوائلها...[٥].

ـ قوله في تفسير سورة الزمر: واَعلم أنا بالغنا في سورة الأنعام في تفسير قوله «فمن يرد اللّه أن يهديه يشرح صدره للإسلام»[٦]... ولا بأس بإعادة كلام قليل ههنا [٧].

ـ قوله في تفسير سورة الرحمن : وقد ذكرنا هذا كله في تفسير سورة الفاتحة[٨]...

ـ قوله في تفسير سورة النازعات ـ وهي في الجزء الأخير من القرآن الكريم ـ واَعلم أنا قد بيّنا في سورة طه [٩]....

وتلك الاحالات المتعددة، كانت أحد الأسباب التي جعلت الدكتور محسن عبدالحميد يجزم بأن الرازي قد أكمل تفسيره بنفسه، حيث يقول :

(١) : انظر : الرازي مفسراً ص ٦٢ .
(٢) : انظر التفسير الكبير ٢٤/ ١٣٠.
(٣) : نفسه ٢٦/٢٨.
(٤) : نفسه ٢٦/١٧٤.
(٥) : نفسه ٢٥ / ١٤١.
(٦) : سورة الأنعام ، آية : ١٢٥
(٧) : انظر التفسير الكبير ٢٦/٢٦٥.
(٨) : نفسه ٢٩/٨٤.
(٩) : نفسه ٣١/٤٣.

والذي انتهيت إليه بعد قراءتي التفسير كله، أن جميع هؤلاء. يعني بهم القائلين بأن الرازي لم يكمل تفسيره. قد أخطأوا نتيجةلعدم قراءتهم جميع التفسير، إذ لو فعلوا مثلما فعلت لكان من الممكن أن يصلوا إلى ما وصلت إليه، وهو: أن تفسير «مفاتيح الغيب» اعتباراً من سورة الفاتحة إلى نهاية سورة الناس له وليس لغيره[1].

وهذه الاحالات أقوى في الترجيح وأشمل مما توصل إليه الدكتور محمود النقراش، من أنَّ الرازي قد وصل في تفسيره إلى سورة ص، وذلك بعد أن نقل كلاماً طويلاً عن الرازي في قصّة سيدنا داود. عليه السلام.، وأنه قد حضر مجلسه بعض أكابر الملوك ...[2]، ثم ذكر أن العلامة الفخر الرازي كان وحده صاحب الحظوة عند الملوك. علي ما بينته كتب التراجم.[3]، وساق ما يؤيد هذا من إكرام السلاطين له واحتفائهم به، ثم قال:

ولعل هذا يعطينا شيئاً نستطيع أن نتبين منه أن الفخر الرازي وصل إلى تفسير سورة ص، وبهذا يكون قد قطع مرحلة ليست باليسيرة في تفسيره إن لم يكن القطع بذلك هو الأولى[4].

أقول: قد وقفت على قوله في هذه السورة: ... وقد لخصناها في أول سورة يونس بالاستقصاء، فلا سبيل إلى التكرير[5]، وتفسير سورة يونس للإمام الرازي بلا خلاف.

ب. التواريخ التي دونها الرازي في نهاية كثير من السور، وهي ما بين سنة ٥٩٥ هـ. إلى سنة ٦٠٣هـ، ولنركز هنا على ما أثبت من التواريخ بعد سورة الأنبياء، حيث نجده يقول بعد فراغه من تفسير سورة الصافات:

تم تفسير هذه السورة ضحوة يوم الجمعة، السابع عشر من ذي القعدة سنة ثلاث وستمائة،

(١): انظر الرازي مفسراً ص ٥٦ فمابعدها، ففيه طرف من الاحالات، ولكن بغير الترتيب الذي سلكناه، كما أنه لم يذكر كثيراً مما ذكرناه، مما يدل على أن الاحالات كثيرة جداً.

(٢): انظر التفسير الكبير ١٩١/٢٦.

(٣): وهذا فيه نظر، فإن تلميذ الإمام الرازي شمس الدين أحمد بن الخليل الخويي، الذي قيل إنه أكمل تفسير «مفاتيح الغيب» للرازي، كانت له حظوة. أيضاً. عند الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل، فإنه. كما يقول ابن أبي أصيبعة. لما ورد إلى الشام في أيام السلطان الملك المعظم، استحضره وسمع كلامه فوجده أفضل أهل زمانه في سائر العلوم، وكان الملك المعظم عالماً بالأمور الشرعية والفقه فحسن موقعه عنده وأكرمه. انظر عيون الأنباء ص ٦٤٦.

(٤): انظر مناهج المفسرين. التفسير بالرأي. ص ٧٤.

(٥): انظر التفسير الكبير ٢٠١/٢٦، وأقول: وقد وقفت على قول الرازي في تفسير سورة ص. أيضاً.: الكلام المستقصى في أمثال هذه الفواتح مذكور في أول سورة البقرة، ولا بأس بإعادة بعض الوجوه... ١٧٤/٢٦. وهذا لون من ألوان الاحالات الكثيرة في التفسير الكبير، ومثل هذا التعبير دائر في أوله وأخره، فمن ذلك قوله في تفسير سورة أل عمران: وقد سبق تفسير الحنيف في سورة البقرة ٩٩/٨، وقوله: ... فتقدم في سورة البقرة ١٦٤/٧، وهذه الكلمة مفسرة في سورة الأنعام ٧٠/٢٢... قد تقدم بيانها في سورة البقرة ١٤٨/٢٢، وقام الكلام في الآية في سورة البقرة ١٩/٢٣.

والحمد لله رب العالمين... إلخ [١].

ونحوه في آخر تفسير سورة ص [٢]، وتفسير سورة الزمر، ويضيف: يقول مصنف هذا الكتاب: الملائكة المقربون عجزوا عن إحصاء ثنائك، فمن أنا، والأنبياء المرسلون اعترفوا بالعجز والقصور، فمن أنا، وليس معي إلا أن أقول: أنت أنت وأنا أنا، فمنك الرحمة والفضل والجود والإحسان، ومني العجز والذلة والخيبة والخسران، يارحمن يا ديان، ياحنان يا منان، أفض عليّ سجال الرحمة والغفران برحمتك يا أرحم الراحمين، وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي، وعلى آله وأصحابه وأزواجه أمهات المؤمنين وسلم تسليماً كثيراً [٣]. ومثله في آخر تفسير سورة غافر [٤]، وغيرها كثير تماماً مثلما يقول ذلك في آخر تفسير سورة البقرة[٥].

وهذه العبارات المشتملة على قوّة التضرع، وصدق اللجوء، وإظهار الضعف والمسكنة والتواضع، هي دأب الإمام الرازي ـ رحمه الله تعالى ـ في تفسيره، سواء في ذلك أوله وأوسطه وآخره، بل هي منهجه في حياته الذي ترجمه في وصيته المؤثرة.

نعم، إنّ التواريخ تفيد أن الرازي لم يفسر جميع القرآن مرة واحدة، ولم يراع ـ كما يقول الدكتور محسن عبدالحميد ـ ترتيب السور سابقها ولاحقها[٦]، ولكنها تفيد ـ وبلا شك ـ أنه أكمل تفسيره كله.

حـ ـ وحدة الأسلوب، فيما بعد سورة الأنبياء وفيما قبلها، وكذا المصادر المعتمدة في التفسير، والترجيح الذي يتوصل إليه، والتوافق التام في المصطلحات، والاتجاه الواحد في إبداء الآراء، واختيار العقائد ودفع الشبهات، وكذا أسلوب الأسئلة والأجوبة في إثارة المسائل الفكرية والبلاغية، وطريقة الاستدلال والاستنباط، وما شابه ذلك من الردود والمناقشات [٧].

٢ ـ وأما ما ذهب إليه الدكتور محمود بسيوني فودة من أنّ الأسلوب متغاير، وأنّ هناك فرقاً

(١): انظر التفسير الكبير ٢٦/١٧٣.

(٢): نفسه ٢٦/٢٣٦.

(٣): نفسه ٢٧/٢٥.

(٤): نفسه ٢٧/٩٣.

(٥): حيث يقول: وهذا المسكين البائس الفقير، كاتب هذه الكلمات يقول: الهي وسيدي كل ما طلبته وكتبته ما أردت به إلا وجهك ومرضاتك، فإن أصبت فبتوفيقك أصبت فأقبله من هذا المكدّي بفضلك، وإن أخطأت فتجاوز عنّي بفضلك ورحمتك يا من لا يبرمه إلحاح الملحّين، ولا يشغله سؤال السائلين .... إلخ انظر التفسير الكبير ٧/١٦٣.

(٦): انظر الرازي مفسراً ص ٥١، وفي هذا جواب إحالته ـ أثناء تفسيره لآية الوضوء من سورة المائدة ـ على ما ذكره في تفسير سورة البينة.

(٧): انظر الرازي مفسراً ص ٦١ ـ ٦٢ بتصرف.

ما بين النصف الأول والنصف الثاني من التفسير [1] فغير مقبول، لأنه خلاف الواقع، كما هو ظاهر عند كل من يقلب صفحات التفسير، ويمعن النظر في أجزائه.. ولنضرب مثلاً بأقصر سورة، ألا وهي سورة الكوثر :

فأنظر إلى أسلوبها، والوجوه المبثوثة فيها، واللطائف المتنوعة، والفوائد المتعددة، والتعرض للأمور العقلية، وطرق الأسئلة والأجوبة فيها، وذكر الأقوال والمسائل الكثيرة، والاستطرادات، والإشارات، واللغة والاعراب ووجوه البلاغة، ونقل آراء المفسرين واختلافاتهم، والترجيح أو التوفيق بين بعض الأقوال، وما إلى ذلك من الفهم والمعاني الدقيقة، ثم قوله ـ رحمه الله تعالى ـ بعد هذا التطواف الذي ينمّ عن عقليته المتّقدة، والمعبّر عن تواضعه المعهود، ومعرفته بعظمة كلام ربه تبارك وتعالى:

اعلم أن من تأمل في مطالع هذه السورة ومقاطعها، عرف أن الفوائد التي ذكرناها بالنسبة إلى ما استأثر الله بعلمه من فوائد هذه السورة كالقطرة في البحر [2].

وانظر بعدها إلى سورة الكافرون، تجده قد ذكر في «قل» ـ فقط ـ ثلاثة وأربعين فائدة، وذلك منهجه في التوسع والاستطراد.

وما ذكره الدكتور بسيوني من أن هناك فرقاً في ذكر أقوال الحكماء والمسائل الرياضية وغيرها، فغير مسلّم ـ أيضاً ـ لما تقدم، ولأن ذلك مثبوت في ثنايا التفسير، نجده في مواضع متعددة من الأجزاء الأخيرة.

انظر ـ مثلاً ـ ما ذكره في تفسير سورة يس عند قوله تعالى : «والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم. والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم.. لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكلّ في فلك يسبحون» [3، 4].

وانظر المسائل التي ذكرها في تفسير قوله تعالى من سورة الطور: «يوم تمور السماء موراً. وتسير الجبال سيراً» [5]، لا سيما الثانية والرابعة منها [6].

وما ذكره في تفسير سورة التكوير والانفطار والفجر وغيرها من السور التي بعد سورة

(١) : انظر نشأة التفسير ومناهجه ص ١٨٩ ـ ١٩٠ .

(٢) : انظر التفسير الكبير ٣٢ / ١٣٤.

(٣) : سورة يس ، الأيات : ٣٨ ـ ٤٠ .

(٤) : انظر التفسير الكبير ٢٦/٧١ ـ ٧٧ .

(٥) : سورة الطور، الأيتان : ٩ و ١٠.

(٦) : انظر التفسير الكبير ٢٨/٢٤٢ ـ ٢٤٥ .

الأنبياء، وقارن بما ذكره في السور قبلها، فلا أظنك تجد فرقاً يمكن من خلاله أن تقول إنّ مؤلفاً آخر قد اشترك مع الإمام الرازي في هذا التفسير الكبير.

ومع هذا.. فلا يخفى على أحد من الباحثين، أنّ دأب كل مفسّر التوسع في تفسير الآيات التي يتناولها أول مرة، بما يغنيه عن إعادة البحث أو التوسع فيها مرة أخرى [١].

وممّا يردّ به على من قال: إنه وصل في تفسيره إلي سورة الأنبياء فقط:

ا ـ إحالة الرازي ـ في بعض السور ـ على ما ذكره في بعض كتبه، مما يدل على أنه هو المفسّر لتلك السورة التي وردت الإحالة فيها، وذلك كقوله ـ مثلاً ـ في تفسير سورة الفجر، وهي في الجزء الأخير من القرآن الكريم:

«... وجواب المعارضة بالنفس مذكور في كتابنا المسمّى: بلباب الإشارات»[٢]. ومن المعلوم أنّ كتاب «لباب الإشارات» من كتب الإمام الرازي المشهورة في الردّ على الفلاسفة [٣]».

وقوله في تفسير سورة الزمر : ولنا كتاب مفرد في اثبات تنزيه الله تعالى عن الجسمية والمكان سمّيناه : بتأسيس التقديس [٤].

وقوله في تفسير سورة الأنبياء نفسها: أما المأخذ الأول: فقد تكلمنا فيه في الجملة في كتابنا المسمى: بالمحصول في الأصول، ولنذكر ههنا أصول الكلام من الطرفين [٥].

ب ـ نقله عن والده العلامة ضياء الدين عمر الشهير بخطيب الري ـ رحمهما الله تعالى ـ، وذلك كقوله في تفسيرسورة الحديد: وسمعت والدي ـ رحمه الله ـ يقول [٦]...

وقوله في تفسير سورة الزمر : كان الشيخ الوالد ضياء الدين عمر ـ رحمه الله تعالى ـ يقول[٧]...، وكذا ذكر في تفسير سورة غافر[٨].

(١) : وقد صرح الفخر الرازي ـ رحمه الله تعالى ـ بهذا، حيث قال في تفسير قوله تعالى: «يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً» ـ الآية ٢٦ من سورة البقرة ـ: ونريد أن نتكلم ههنا في الهداية والإضلال ليكون هذا الموضع كالأصل الذي يرجع إليه في كل ما يجيء في هذا الموضع من الآيات ٢/ ١٥٠.

(٢): انظر التفسير الكبير ٣١/ ١٧٨.

(٣) : انظر عيون الأنباء ص ٤٧٠، كشف الظنون ١/ ٩٤، هدية العارفين ٦/ ١٠٨، مقدمة التفسير الكبير ١/ ٦، وانظر : فخر الدين الرازي للدكتور فتح الله خلف ـ قائمة بمؤلفات الرازي ص ١٦٣، وكذا صنع الأستاذ صالح الزركان في رساله، واعتمده الدكتور محسن عبدالحميد وعدّهُ من الكتب الثابتة له. انظر كتبه في المنطق والفلسفة رقم ٩ في الرازي مفسراً ص ٣٩.

(٤) : انظر التفسير الكبير ٢٧/ ١٧.

(٥) : نفسه ٢٢/ ١٩٦.

(٦) : نفسه ٢٩ /٢١٤.

(٧) : نفسه ٢٦/ ٢٤٧.

(٨) : نفسه ٢٧/ ٤٨.

٣ ـ وأما عن العبارات التي وردت في تفسير بعض السور، ولا يتصور صدورها من الإمام الرازي نفسه، فنقول :

إنّ الذي ذكروه من ذلك موضعان فقط، وهما في تفسير سورة الواقعة ـ كما تقدم ـ ، وقد وقفت على موضع آخر في تفسير سورة يسن، يقول فيه:.... واستحسنه فخر الدين الرازي ـ رحمه الله تعالى ـ ، سمعته يترحم عليه بسبب هذا الكلام [١] وقد تكون هناك مواضع أخر مشابهة.

وهي عبارات مشكلة، ولكن يمكن دفع هذا الإشكال وتوجيه تلك العبارات بما يلي :

١ ـ إنها تعليقات متناثرة من بعض تلامذة الإمام الرازي أو قرائه، أضيفت إلى المتن، أو كتبت في الحاشية ودخلت المتن أثناء استنساخه(٢).

٢ ـ أن يكون هناك نقص أو سقط، كمله بعض العلماء [٣].

ومما يرجح هذا، بل ويؤكده، أنه يقول في سورة الواقعة نفسها :

[.... كما قلنا في قوله تعالى: «هذا خلق الله» [٤]، [٥].].

وهذه آية من سورة لقمان، وتقدم أنه قال في تفسير سورة لقمان: وذكرنا في تفسير الأنفال في أوائلها... وتفسير سورة الأنفال للرازي بلا خلاف، إذاً فالرازي نفسه هو الذي فسّر سورة لقمان، وإذا ثبت أنه فسّر سورة لقمان... ثبت أنه فسّر سورة الواقعة، ومثله إحالته على سورة فاطر، وفيها أحال على سورة لقمان [٦].

ويقول في سورة الواقعة ـ أيضاً ـ : وقد بيّنا تفسير العالم وما فيه من اللطائف [٧]. وذلك ـ على ما لا يخفى ـ في تفسير سورة الفاتحة، حيث ذكر هناك في تفسير العالم عدة لطائف [٨].

ويقول ـ أيضاً ـ : وقد بيناه في الذاريات وفي الطور وفي النجم وغيرها [٩].. ، وقد قال في الذاريات : وقد ذكرنا في سورة العنكبوت شيئاً منه [١٠]، وتقدم أنه أحال في سورة العنكبوت

---

(١) : انظر التفسير الكبير ٢٦/١١٣، قال ذلك بعد كلام منقول عن الإمام الغزالي ـ رحمه الله تعالى ـ .

(٢) : انظر : الرازي مفسّراً ص ٦٣.. وهذا ما كنت أميل إليه، وأشرحه لطلبة الدراسات العليا في مادة مناهج المفسرين، قبل أن أقف على ما ذكره الدكتور محسن عبدالحميد وغيره.

(٣) : انظر التفسير الكبير ٢٩/١٥٦ هامش (١) و٢٦/١١٣ هامش (١).

(٤) : سورة لقمان ، آية : ١١.

(٥) : انظر التفسير الكبير ٢٩/١٩٧.

(٦) : نفسه ٢٩/١٨٥ و ٢٦/٥.

(٧) : نفسه ، ٢٩/١٩٧ .

(٨) : نفسه ١/١٨٥ ـ ١٨٦.

(٩) : نفسه ٢٩/١٨٩.

(١٠) : نفسه ٢٨/٢٢٨.

على ما ذكره في تفسير سورة البقرة، ويقول ـ أيضاً ـ نقول قد بينا في سورة الرحمن[١]، وقال في سورة الرحمن : وقد ذكرنا هذا كله في تفسير سورة الفاتحة[٢] . وتفسير الفاتحة للرازي بلا خلاف . ويقول في تفسير سورة يسن : قد ذكرنا كلاماً كلياً في حروف التهجي في سورة العنكبوت ...[٣].

وتقدم أنه أحال في تفسير سورة العنكبوت على ما ذكره في سورة البقرة،

ومما يلاحظ : أنه قال في قوله تعالى: «كأمثال اللؤلوء المكنون»[٤]: فيه مباحث، ثم لم يذكر إلا مبحثاً واحداً ـ وهو الأول[٥] . .. مما يرجح أنّ هناك نقصاً استدرك بعض العلماء بعضه ـ كما تقدم ـ .

والنتيجة التي نطمئن إليها في هذه المسألة هي :

ـ أن ما ذكر في تفسير سورة يسن، إنما هو تعليق كتب في الهامش ثم أدرج في المتن[٦].

ـ وأما ما ذكر في تفسير سورة الواقعة، فالظاهر أنه اكمال لسقط أو نقص في الأصل ـ على ما تقدم ـ والله تعالى أعلم .

وعلى كلّ الاحتمالات، فانا نصل إلى نتيجة واحدة و هي : أن الإمام الرازي ـ رحمه الله تعالى ـ قد فسّر بنفسه ما بعد سورة الأنبياء كا فسّر ما قبلها، وأنّ التفسير الكبير الموسوم بمفاتيح الغيب له وحده، لم يشاركه فيه أحد، اللّهم إلا ما كان من تعليقات يسيرة تناثرت على هامش التفسير من بعض القراء أو الدارسين، ثم أدرجت في صلب التفسير، أو اكمال نقص أو سقط قد وقع في الأصل ثم استدركه بعض العلماء ـ كما تقدم ـ .

وحلّ هذه المشكلة كفانا ـ بحمد الله تعالى ـ مشكلة من أكمل التفسير، التي يقول عنها الدكتور الذهبي ـ رحمه الله تعالى ـ : تلك مشكلة لم نوفّق إلى حلّها حلاً حاسماً، لتضارب أقوال العلماء في هذا الموضوع[٧].

---

(١) : انظر التفسير الكبير ١٦٦/٢٩.

(٢) : انظر التفسير الكبير ٨٤/٩.

(٣) : انظر التفسير الكبير ٣٩/٢٦.

(٤) : سورة الواقعة ، آية : ٢٣.

(٥) : انظر التفسير الكبير ١٥٥/٢٩.

(٦) : وانظر هامش (١) في التفسير الكبير ١١٣/٢٦ حيث قال المعلّق: فلعل هذا الكلام زيادة علق بها تلميذ المؤلف ـ رحمهما الله تعالى ـ .

(٧) : انظر التفسير والمفسرون ٢٩١/١، وكشف الظنون ١٧٥٦/٢.

الشبهة الثانية :

. قال أبو حيان : جمع الإمام الرازي في تفسيره أشياء كثيرة طويلة لا حاجة بها في علم التفسير، ولذلك قال بعض العلماء: «فيه كلّ شيء إلا التفسير»[١].

هكذا «اطلقت هذه العبارة على تفسير الرازي، فتناقلها الناس ودارت على الألسنة ليُغمز بها الرازي وتفسيره عن قصد أو بغير قصد.

وأرى أنّ المتأمل في هذه المقولة . وله معرفة بتفسير الرازي . يدرك أنّ فيها مغالاة ومبالغة زائدة[٢]، وحيفاً على هذا التفسير وصاحبه، ولعلّ منشأ الخطأ في هذا الحكم ومجانبة الصواب، إنما نتج عن عدم ملاحظة منهج الرازي في تفسيره والدافع له على تأليفه ، وهو :

الدفاع عن القرآن الكريم، وتبرير جميع ما جاء فيه على ضوء القوانين العقلية، وتأييد استدلالاته في العقيدة بها، وإجابة الطاعنين والرد عليهم حتى لا يبقى شك عند أحد في كونه من الله سبحانه وتعالى، ولذا فهو يسخر في تفسيره المعارف الإنسانية لتحقيق هدفه، وهو : إثبات الإعجاز العقلي والعلمي للقرآن، وإظهاره منزهاً عن التناقض الفكري والقصور العقلي، وإثبات حقائق النقل بدقائق العقل، حتى لا يستطيع ملحد أو ضال أن ينفذ من ثغرة غير مسدودة، فيطعن في القرآن بآسم العلم، فينطلي تزييفه على البسطاء، فتتعرض عقائد الناس إلى الهزات.. إنه يمثل ذروة المحاولة العقلية لفهم القرآن[٣]، وإثبات سلامته من أيّ نوع من أنواع التناقض مع اشتماله على تلك العلوم والمعارف الكثيرة.

إنه يلزمنا أن نلاحظ أن منهج الرازي في تفسيره لا يقوم على الأثر وسرد الروايات. وإن كان قد اشتمل على قدر ليس بالقليل من ذلك . ، حتى نصدر عليه مثل هذا الكلام القاسي، الذي ربما

(١) : انظر الاتقان ٢١٣/٤ وقال : إنه ذكر ذلك في البحر، ولم أجده في مقدمته مع تعرضه لبعض التفاسير، فلعله ذكره في بعض المواضع في ثنايا التفسير، وانظر كشف الظنون ٢٣٠/١ ـ ٢٣١، ونسب الصفدي هذه العبارة للإمام ابن تيمية ، وذكر أنها نقلت لقاضي القضاة أبي الحسن علي السبكي فقال: ما الأمر كذا، إنما فيه مع التفسير كلّ شيء، انظر الوافي بالوفيات ٢٥٤/٤.

(٢) : بعد أن كتبت هذا وقفت على ما ذكره الشيخ عبدالله ابن الصديق الغماري، فإنه بعد أن اثنى على التفسير الكبير، وذكر قيمته العلمية قال: وقد قيل عنه : فيه كل شيء إلا التفسير، وفي هذا القول غلو ومبالغة، وإلا فهو من جهة الكلام على الآيات ، وما فيها من اللغات والفوائد، لا يقل عن أي تفسير من التفاسير المهمة إن لم يفق عليه. انظر بدع التفاسير ص ١٧٦، ووقفت . أيضاً . على ردّ الدكتور جلال الدين عبدالرحمن لهذا القول، لأنه صدر عن غير روية، ونبت على مقارنة سطحية. انظر القاضي ناصر الدين البيضاوي وأثره في أصول الفقه ص ٢٢٧ مطبعة السعادة بمصر.

(٣) : انظر الرازي مفسراً ص ١٩٢ و ١٩٣.

حال دون انتفاع البعض بهذا التفسير الكبير، وصدّ عن الاغتراف من سيله المتدفق، وطريقته المتميّزة، في كشف بعض الجوانب من الحقائق التي يزخر بها هذا الكتاب العظيم .

يقول الشيخ محمد الفاضل بن عاشور ـ رحمه اللّه تعالى ـ : وإذا كان بعض الناس لم يزل في شك من القيمة السامية لهذا التفسير، فإن كلمة قديمة لاكتها الألسن، قد كانت من أعظم أسباب هذا الشك، وذلك ما راج في مجالس العلماء قديماً وحديثاً من أن تفسير الرازي قد اشتمل على كل علم إلا التفسير، فإنها كلمة صدرت من غير روية ولا تحقيق(١) .

وصدق ـ رحمه اللّه تعالى ـ ، فلذا فهي تحتاج إلى إعادة نظر وتصحيح، ولعلّ الأعدل فيها أن تكون: فيه كل شيء مع التفسير (٢)، نظراً لاَستطرادات الرازي وكثرة تفريعاته.

ولعلها إنما صدرت بناء على قول الرازي في مقدمة تفسيره: [اعلم أنه مرّ على لساني في بعض الأوقات، أنّ هذه السورة ـ يعني سورة الفاتحة ـ يمكن أن يستنبط من فوائدها ونفائسها عشرة آلاف مسألة، فآستبعد هذا بعض الحسّاد، وقوم من أهل الجهل والغيّ والعناد، وحملوا ذلك على ما ألفوه من أنفسهم من التعلقات الفارغة عن المعاني، والكلمات الخالية عن تحقيق المعاقد والمباني، فلما شرعت في تصنيف هذا الكتاب قدمت هذه المقدمة لتصير كالتنبيه على أن ما ذكرناه أمر ممكن الحصول، قريب الوصول](٣) .

فكان هذا سبباً مهماً في اطلاق تلك العبارة، واصدار ذلك الحكم على التفسير كله، وكأنهم رأوا أن الرازي سلك هذا المنهج في جميع تفسيره، ولكن الدكتور محسن عبدالحميد الذي درس تفسير الرازي من أوله إلى آخره يرى : أنّ منهجه في تفسيره لجميع سور القرآن بعد الفاتحة ـ وإن اتفق في بعض خطوطه العامة مع منهجه السابق ـ إلا أنه يختلف عنه في التفاصيل والجزئيات، ثم دلّل على ذلك بأمثلة متعددة، ظهر منها ومن غيرها أن كثيراً من استطرادات الرازي التي عيب عليها متصل بالتفسير فمثلاً: في قوله تعالى: «وقال يا بنيّ لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة»(٤)، قال المفسرون : إنه خاف عليهم من عين الحسد، والقارئ لكتاب اللّه عندما يقرأ هذه الآية تتزاحم في ذهنه أسئلة حول حقيقة العين، وما جاء فيها من المنقول

(١) : انظر التفسير ورجاله ص ٨١ .

(٢) : انظر ما تقدم في الصفحة السابقة هامش (١).

(٣) : انظر التفسير الكبير ١/ ١١.

(٤): سورة يوسف ـ عليه السلام ـ ، آية: ٦٧

والمعقول لكي يصل إلى الحق، ولا شك أن الرازي عرف هذا السؤال المتوقع، ودفعاً لهذه الحاجة العلمية عرض الموضوع مفصلاً من حيث النقل والعقل[1].

وقد سبقه إلى هذا الدكتور فتح الله خليف حيث قال: وقد كنت أظن أن عبارة ابن تيمية تنطوي على قدر كبير من الصحة، وكنت أرى أن المتصفح لتفسير سورة الفاتحة الذي أفرد له الرازي مجلداً ضخماً لا يسعه إلا أن يوافق ابن تيمية على رأيه، ولكن هذا الظن قد تبدّد في نفسي بعد أن صبّرتها على دراسة تفسير الرازي والتوغل فيه وفي مباحثه، وأصبحت أكثر ميلاً إلى رأي تاج الدين السبكي وهو أن تفسير الرازي فيه كلّ شيء مع التفسير.. فيه مع التفسير مباحث لغوية وفقهية وكلامية وفلسفية، وإن كانت النزعة الكلامية هي الغالبة عليه في التفسير، كما غلبت عليه في التأليف[2].

وكيف يقال: «فيه كل شيء إلا التفسير»، وهو زاخر بألوان كثيرة من التفسير! ألم يعن بتوضيح المفردات، وما في الآيات من عبر وعظات، ويهتم بتفسير آيات الأحكام، وبذكر المناسبات، سواء بين السور أو بين الآيات، وألم يبل بلاء حسناً في تفسير آيات القصص، ويكن له في ذلك شأن رفيع، لا سيما في ردّ كثير من القصص الباطل، مما له مساس بالذات الألهية، أو خدش لمقام الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام -، ذلك القصص المختلق الذي طفحت به كثير من أمهات كتب التفسير، فجاء الرازي ليفند كثيراً منه على أساس القواعد الأصولية من المنقول والمعقول، وأما عنايته بتفسير آيات العقيدة، وتأييد استدلالاته بالقوانين العقلية، فأمر واضح في تفسيره القائم على منهج العقل - كما تقدم - .

ألم تتعدد مصادره التفسيرية عن جهابذة المفسرين ؟!

فهل يصحّ أن نعتبر هذا وأمثاله خارجاً عن دائرة التفسير ؟!

ثم تعال إلى التفسير المأثور في مفاتيح الغيب، وتأمل عناية الرازي بهذا الجانب، من مثل: تفسير القرآن بالقرآن، من تبيين المجمل، وتقييد المطلق، وتخصيص العام، والتفسير بالقراءات ونحو ذلك، ومن مثل: التفسير بالحديث، وبأقوال الصحابة والتابعين - رضي الله عنهم - .

(١): انظر الرازي مفسراً ص ٢٠٢-٢٠٣، وانظر توضيح هذا المعنى فيما ذكره الشيخ محمد الفاضل بن عاشور في كتابه: التفسير ورجاله ص ٧٧ و ٨٢.

(٢): انظر: فخر الدين الرازي ص ٤٢، وانظر فيه: ص ٥٥-٥٦.

إنك - وبلا شك - إن صبرت على التتبع والتأمل، تحصل لك من ذلك تفسيرٌ كثيرٌ مبارك، نعم، إن الرازي لم يُعْنَ بالمأثور كثيراً، إذ منهجه لا يقوم على ذلك، ولكنه متى ما صحّ عنده شيء منه، لا يعدل عنه.

وإني أرى أنّ هذا الجانب في التفسير الكبير جديرٌ بالدراسة والتحقيق، كيما ننصف الإمام، ولا نلقي الكلام جزافاً دون روية وتمحيص.

وملخص الكلام: إنه لا يستطيع أحد أن ينكر استطرادات الرازي واستنباطاته وكثرة تفريعاته، وأن عقليته المتقدة، وتزاحم الأفكار في رأسه وكثرة تداعيها، أوقعته في بعض الأشياء التي قد تبعد به عن التفسير، ولكنها على كل حال، لا تسوّغ مثل هذا الحكم.

ولا نكون مغالين ولا متجاوزين حدّ الصدق إن قلنا : إذا كان الناس عيالاً في التفسر بالرواية على الامام الطبري، فإنهم عيال - كذلك - في التفسير بالدراية على الإمام الرازي - رحمهما الله تعالى - .

الشبهة الثالثة :

- إيراده شبه المخالفين في المذهب والدين على غاية ما يكون من التحقيق، ثم يورد ردّها على غاية من الوهاء والضعف، ومثلها قول بعضهم: إنه يورد الشبه نقداً ويحلّها نسيئة، [(١)]، وقول الآخر : كان يقرر في مسائل كثيرة من مذاهب الخصوم وشبههم بأتم عبارة، فإذا جاء إلى الأجوبة اقتنع بالإشارة [(٢)].

هذه عبارات أطلقت علي تفسير الرازي، فدارت على الألسنة في القديم والحديث، وهي - كسابقتها - لا تخلو من مغالاة ، ولا يصح أن تقال بهذا الاطلاق .

وممّن اقرّها من العلماء الإمام الطوفي، ولكنه حاول أن يجيب عنها بما خلاصته:

ولعمري إنّ هذا لدأبه في كتبه الكلامية والحكمية، حتى اتهمه بعض الناس، ونسبه إلى أنه ينصر بهذا الطريق ما يعتقده ولا يجسر على التصريح به، ولعمري إنّ هذا ممكن، لكنه خلاف ظاهر حاله، لأنه لو كان اختار قولاً أو مذهباً ما كان عنده من يخاف منه حتى يستر عنه، ولعل سببه أنه كان يستفرغ [قواه] [(٣)] في تقرير دليل الخصم، فإذا انتهى إلى تقرير دليل نفسه لا يبقى عنه شيء من

(١) : ذكره الحافظ ابن حجر في لسان الميزان ونسبه إلى بعض المغاربة ٤/٤٢٧.

(٢) : قاله أبو شامة في ذيل الروضتين ص ٦٨. وانظر البداية والنهاية ١٣/٤٧.

(٣) : في لسان الميزان ٤/٤٢٨ [أقوالاً] ، وكذا في التفسير والمفسرون للذهبي ١/٢٩٥، وكذا نقلها الدكتور فتح الله خليف ص ٩، ولعلّ الصواب ما ذكرناه كما هو ظاهر السياق، ومما يرجح هذا: أن نص الطوفي في الاكسير هو: .... كان يستفرغ وسعه ويكد قريحته في تقرير شبه الخصوم.

القوى، ولا شك أن القوى النفسانية تابعة للقوى البدنية، وقد صرح في مقدمة نهاية العقول: أنه مقدر مذهب خصمه تقريراً لو أراد خصمه تقريره لم يقدر على الزيادة على ذلك[1].

وقول الطوفي هذا، فيه نظر، وذلك في نقطتين :

الأولى: تقريره لاطلاق تلك المقولة، ثم سحبها على سائر كتبه الكلامية.

والثانية : في اعتذاره عنه بضعف قواه ثم عجزه عن الردّ لذلك.

أما الأولى : فغير مسلمة، واطلاقها ـ هكذا ـ غير دقيق، فإنّ المتتبع لكلام الرازي ـ لا سيما في التفسير الذي نحن بصدد الحديث عنه ـ يجد أنّ له ردوداً علمية متينة تأتي على شبهة الخصم وتجتثها من أصولها، خاصة المعتزلة الذين أخذت شبههم وردودها مساحة واسعة في مواضع متعددة من تفسيره الكبير، حتى إن جولد تسهير اكتفى في عبارته الوجيزة عنه[2] بقوله : وقد عمد المتكلم الكبير والفليسوف الديني فخر الدين الرازي في تفسيره العظيم للقرآن «مفاتيح الغيب» الذي ينبغي عده خاتمة أدب التفسير المثمر الأصيل، إلى الاستمرار على ملاحظة ما تستنبطه مدرسة المعتزلة عن طريق التفسير والرد عليها من حين إلى آخر بطريقة وافية،[3] بل إنّ الرازي نفسه أدرك ذلك فقال معتذراً :

وليس لأحد أن يعيبنا فيقول : إنكم تكررون هذه الوجوه في كل موضع، فإنا نقول إنّ هؤلاء المعتزلة لهم وجوه معدودة في تأويلات آيات الجزاء فهم يكررونها في كل آية، فنحن ـ أيضاً ـ نكرر الجواب عنها في كل آية[4].

إنّ النظرة العجلى، غير نظرة التروي والتأمل، وقراءة بعض المناقشات والردود، غير قراءة الجميع، ونتيجة هذه ـ كما هو بيّن ـ لا تكون كنتيجة تلك ، وفي هذا يقول الدكتور محسن عبدالحميد ـ الذي درس تفسير الرازي كله دراسة واعية متأنية ـ :

وعند دراستي هذا التفسير وجدت أنّ هذه الأقوال ـ يريد تلك التي تطعن في تفسير الرازي من هذه الناحية ـ لا تمثل الحقيقة كلّها، إذ هي لا تخلو من تعصب ومغالاة.. نعم، إننا نستطيع في أماكن عدة أن نؤاخذ الرازي على تقصيره في الرد القوي، ولكننا نلاحظ في أماكن أخرى ردوداً

(١) : انظر كلمة الطوفي بطولها في كتابة : الاكسير في علم التفسير ص ٢٦ ـ ٢٧، وانظر لسان الميزان ٤/٤٢٨.

(٢) انتقد الدكتور فتح الله خليف جولد تسهير لاكتفائه بهذه الإشارة العابرة إلى تفسير الرازي دون أن يكلف نفسه مشقة دراسة هذا التفسير الكبير. انظر ص ٦٠.

(٣) : انظر مذاهب التفسير الإسلامي ص ١٤٦.

(٤) : انظر التفسير الكبير ١٣/١٥٤ عند تفسير الآية ١١٠ من سورة الأنعام، وانظر ـ مثلا ـ ١٧ /١٧٦.

قوية، ومناقشات علمية طريفة، تثبت قدرة الرازي على مقارعة الحجة بالحجة[١].

فكيف يقال : إنّ هذه دأبه وديدنه ؟.

وقد سبقة الدكتور فتح الله خليف حين وصف هذه الأحكام على تفسير الرازي بأنها خاطئة، وأنّ أصحابها لم يكلفوا أنفسهم مشقة دراسة هذا التفسير الكبير وتأمل مباحثه. وقال : ومن ثمة فإنّ هذا التفسير الكبير لم ينل العناية التي يستحقها من العلماء القدماء والمحدثين على السواء، وأنّ هذه الآراء المتباينة حول قيمة تفسير الرازي لم تستند إلى أرضية صلبة من الدراسة والبحث[٢].

وأما النقطة الثانية في كلمة الإمام الطوفي ـ رحمه الله تعالى ـ : فغير مسلّمة ـ أيضاً ـ والاعتذار غير مقبول، فما كان للرازي وهو الموصوف بسعة العبارة في القدرة على الكلام، وصحة الذهن، والإطلاع الذي ما عليه مزيد، والحافظة المستوعبة، والذاكرة التي تعينه على ما يريده في تقرير الأدلة والبراهين[٣]... أن يفعل مثل هذا، ولا أن يكتفي به، حتى لو سلّمنا أنّ قواه قد ضعفت، وأكبر الظن ـ والله أعلم ـ أن الإمام الرازي يرى أن ذلك كاف، وأن أدلة الخصم على كثرتها وجودة تقريرها، يكفي أن تجتث شأفتها بكذا وكذا، وهذا أشبه بمن يترك الرد أصلاً، إشارة إلى أن الشبهة واهية لا تستأهل الرد، يكفي في ردها وكشف عوارها مجرد النظر والتأمل، ولعل هذا هو سرّ سكوت الرازي عن الرد أصلاً في بعض المواضع، هذا ... مع احتمال تقدّم الرد، فالرازي وإن تقدم عنه أنه قد يكرر بعض الأجوبة، فإنه قد يكتفي بها في بعض الأحيان، يقول ـ رحمه الله تعالى ـ في تفسير قوله تعالى: «يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً»[٤]: ونريد أن نتكلم ههنا في الهداية والاضلال ليكون هذا الموضع كالأصل الذي يرجع إليه في كلّ ما يجيء في هذا الموضع من الآيات[٥].

نعم، إنّ قول الطوفي عن الرازي ـ رحمهما الله تعالى ـ : إنه لو اختار قولاً أو مذهباً ما كان عنده من يخاف منه حتى يسترعنه .. مسلّم، وهذا أمر بيّن لمن عرف شخصية الرازي، ووقف على سيرته ومكانته العلمية والاجتماعية والدينية والسياسية.

(١) : انظر الرازي مفسراً ص ١٩٤ ، وانظر ما ضربه من الأمثلة في مبحث: مناقشته للمعتزلة والشيعة ص ٣٣٠ ـ ٣٣٧ . وانظر التفسير الكبير ١٧/١٧٣ ـ ١٧٦ عند تفسير قوله تعالى: « وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله» الآية ١٠٠ من سورة يونس ـ عليه السلام ـ .

(٢) : انظر : فخر الدين الرازي ص ٦٠ وقبلها : ص ٢.

(٣) : انظر : الوافي بالوفيات ٤/٢٤٨.

(٤) : سورة البقرة / آية : ٢٦ .

(٥) : انظر التفسير الكبير ٢/١٥٠.

ومما يلقي الضوء علي ما تقدم، أن الرازي لم يكن متعصباً ولا مغالياً، ولا قانعاً باليسير من الإطلاع، وأنه كان شديد الاشتياق إلى الوقوف على الحق، كما صرح به في وصيته التي أملاها عند موته، ولذا فهو يعرض أدلة الخصوم وافية، وينقل الأقوال جميعها، ليعلم خصومه أنه على دراية تامة بالفكرة التي يتعرض لمناقشتها، وهذا بحد ذاته ـ مسلك نبيل، يدل على الأمانة العلمية، والتحلي بآداب المناظرة ، وبعد ذلك فقد يردّ ردّاً قوياً مماثلاً، وقد يكتفي بالقليل ـ أحياناً ـ لما ذكرنا ، وقد يسكت ـ على ندرة ـ فلا يرد بشيء .

وفي الختام نقول :

ألا إنّ الإمام الرازي ـ رحمه اللّه تعالى ـ لم يُنْصف بهذه العبارات المطلقة، وإن الذين أصدروا تلك الأحكام في حقه وحق تفسيره لم يصيبوا، ومن لم يقتنع بما تقدم، فها هو التفسير الكبير أمامه، فليعمد إلى دراسته دراسة واعية متأنية، تتسّم بالتتبع والتأمل، ليكون على بينة من ذلك، ولتكون الأحكام ـ بعدئذ ـ أكثر دقة وإحكاماً.

وقد أحسن الشيخ الزرقاني ـ رحمه اللّه تعالى ـ إذ عده على رأس أهل السنة الذين استبسلوا في الدفاع عن عقيدتهم، لا سيما في تفسيره «مفاتيح الغيب»، حيث شنها حرباً شعواء في كل مناسبة على أهل الزيغ والانحراف في العقيدة، وقد سلك في تفسيره مسلك الحكماء الالهيين، فصاغ أدلتهم في مباحث الالهيات على نمط استدلالاتهم العقلية، ولكن مع تهذيبها بما يوافق أصول أهل السنة، وكذلك تعرض لشبههم بالنقض والتفنيد في كثير من المواضع [(١)].

ولنتأمل فيما ذكره الصفدي من أنه : إذا ذكر للفلاسفة أو غيرهم من خصومه شبهة ثم أخذ في نقضها فإما أن يهدمها ويمحوها ويمحقها، وإما أن يزلزل أركانها، من ذلك، أنه أتى إلى شبهة الفلاسفة في أن وجود اللّه تعالى عين ذاته ـ ولهم في ذلك شبه وحجج قوية مبنية على أصولهم التي قرروها ـ فقال : هذا كله ما نعرفه ولكن نحن نعلم قطعاً أن اللّه تعالى موجود ونشك في ذاته ما هي، فلو كان وجوده عين ذاته لما كنا نعلم وجوده من وجهٍ ونجهله من وجه، إذ الشيء لا يكون في نفسه معلوماً مجهولاً، هذا أمر قطعي، فانظر إلى هذه الحجة ما أقواها وأوضحها وأجلاها ، كيف تهدم ما بنوه وتدكدك ما شيّدوه وعلّوه [(٢)]، وبذلك تعرف أنه ليس العبرة بطول الرد أو قصره، إنما بما يدحض الشبهة في نظره.

(١) : انظر مناهل العرفان ٢/٩٦ـ٩٧.

(٢) : انظر الوافي بالوفيات ٤/٢٥٢.

فهرس أهم المراجع

- القرآن الكريم .

- الاتقان في علوم القرآن للإمام جلال الدين عبدالرحمن السيوطي الشافعي ت ٩١١ هـ - تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم - القاهرة.

- الاكسير في علم التفسير للإمام نجم الدين أبي الربيع سليمان بن عبدالقوي الصرصري الطوفي ت ٧١٦هـ مكتبة الأداب سنة ١٩٧٧م.

- الأعلام تأليف الأستاذ خير الدين الزركلي -

- البداية والنهاية في التاريخ للإمام الحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ت ٧٧٤هـ - دار الكتب العلمية - بيروت.

- بدع التفاسير للشيخ عبدالله بن الصديق الغماري - مطبعة المدني بمصر سنة ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢م.

- تاريخ الإسلام من سنة ٦٠١ - ٦١٠ هـ . للإمام أبي عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ت ٧٤٨ هـ - مؤسسة الرسالة - بيروت.

تاريخ التفسير للشيخ قاسم بن أحمد القيسي الطبعة الأولى - بغداد سنة ١٩٦٧م.

- التفسير الكبير (مفاتيح الغيب) للإمام فخر الدين محمد بن عمر الشهير بابن خطيب الري الرازي ت ٦٠٦ هـ - دار الفكر - بيروت - لبنان.

- التفسير ورجاله للشيخ محمد الفاضل بن عاشور - الطبعة الأولى - تونس سنة ١٩٦٦م.

- التفسير والمفسرون للدكتور محمد حسين الذهبي - دار إحياء الكتب العربية - القاهرة .

- ذيل الروضتين [تراجم رجال القرنين السادس والسابع] للإمام أبي شامة شهاب الدين عبدالرحمن بن إسماعيل المقدسي. ت ٦٦٥هـ - القاهرة سنة ١٣٦٦ هـ - ١٩٤٧م.

- الرازي مفسراً للدكتور محسن عبدالحميد - دار الحرية للطباعة بغداد سنة ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤م.

- شذرات الذهب في أخبار من ذهب للإمام أبي الفلاح عبدالحي بن العماد الحنبلي ت ١٠٨٩ هـ - مكتبة القدسي - القاهرة سنة ١٣٥٠ هـ.

- صحيح مسلم للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري ت ٢٦١ هـ - تحقيق وتعليق وفهرسة محمد فؤاد عبدالباقي - دار إحياء التراث العربي - بيروت .

- طبقات الشافعية للإمام أبي بكر بن أحمد بن محمد بن عمر المعروف بابن قاضي شهبة الدمشقي ت ٨٥١هـ - مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية - بحيدر أباد الدكن - الهند .

- طبقات الشافعية الكبرى للإمام تاج الدين أبي نصر عبدالوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي ت ٧٧١ هـ - تحقيق عبدالفتاح محمد الحلو ومحمود محمد الطناحي - الطبعة الأولى - مطبعة عيسى البابي الحلبي.

- طبقات المفسرين للإمام جلال الدين عبدالرحمن السيوطي ت ٩١١ هـ - دار الكتب العلمية - الطبعة الأولى سنة ١٤٠٣ هـ /١٩٨٣م - بيروت - لبنان .

- طبقات المفسرين للإمام الحافظ شمس الدين محمد بن أحمد الداودي ت ٩٤٥ هـ - دار الكتب العلمية - الطبعة الأولى سنة ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣م - بيروت - لبنان .

- العبر في خبر من غبر للإمام أبي عبدالله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ت ٧٤٨ هـ - دار الكتب العلمية - بيروت.

- عيون الأنباء في طبقات الأطباء لأبي العباس موفق الدين أحمد بن القاسم السعدي المعروف بابن أبي أصيبعة ت ٦٦٨ هـ - تحقيق د. نزار رضا - منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت - لبنان .

- فخر الدين الرازي للدكتور فتح الله خليف - دار بورسعيد للطباعة - الأسكندرية سنة ١٩٧٦م .

- الكامل في التاريخ للعلامة عزّ الدين علي بن أبي الكرم الشيباني المعروف باب الأثير ت ٦٣٠ هـ - دار صادر بيروت ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢ .

- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون للعالم الفاضل الأستاذ مصطفى بن عبدالله الشهير بحاجي خليفة ت ١٠٦٧ هـ - دار الفكر - بيروت سنة ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢م.

- لسان الميزان للإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ت ٨٥٢هـ - من منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت - لبنان.

- مذاهب التفسير الإسلامي تأليف المستشرق إجنتس جولد تسهير - ترجمة الدكتور عبدالحليم النجار - مطبعة السنة المحمدية - القاهرة - سنة ١٣٧٤ هـ / ١٩٥٥م.

- مناهج المفسرين من العصر الأول إلى العصر الحديث - التفسير بالرأي - للدكتور محمود النقراش السيد علي - مطابع دار طيبة - الرياض - الطبعة الأولى سنة ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨م

- مناهل العرفان للشيخ عبدالعظيم الزرقاني - الطبعة الثالثة - دار الفكر - بيروت - لبنان .

- نشأة التفسير ومناهجه في ضوء المذاهب الإسلامية للدكتور محمود بسيوني فودة - مطبعة الأمانة - مصر - الطبعة الأولى سنة ١٤٠٦ هـ/١٩٨٦م.

- هدية العارفين، أسماء المؤلفين وآثار المصنفين تأليف إسماعيل باشا بن محمد أمين البابانى البغدادي ت ١٣٣٩هـ - دار الفكر - بيروت.

- الوافي بالوفيات تأليف صلاح الدين خليل بن إيبك الصفدي ت ٧٦٤هـ - باعتناء س . ديدر نيغ - الطبعة الثانية - سنة ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان ت ٦٨١هـ - تحقيق إحسان عباس - دار صادر - بيروت .

في مفهوم التكفير

د. خليل أبو رحمه

الكفر في اللغة ستر الشيء. وكفر النعمة وكفرانها سترها بترك أداء شكرها، فهو نقيض الشكر وضده، وكلّ من ستر شيئاً فقد كَفَره وكَفّره. ويقال كافرني فلان حقي إذا جحده حقّه [1].

وهذا المعنى الأساس للكلمة؛ أي الستر والجحود، يتردّد في ما وصل إلينا من شعر جاهلي؛ ومنه، مثلاً، قول لبيد:

يعلو طريقة متنها متواتر　　　في ليلة كفَرَ النجومَ غمامُها [2]

أي في ليلة سَتَر أو غطّى الغمامُ نجومَها. ويقول عامر بن الطفيل:

ولا تكفروا في النائبات بلاءنا　　　إذا عضّكم خطب بإحدى الشّدائد [3]

وللطّفيل الغنوي:

بني جعفر لا تكفروا حسن سعينا　　　وأثنوا بحسن القول في كل محفل [4]

ولقد أصاب هذه الكلمة تطور دلالي مهم في الإسلام؛ فعلى كثرة البحث والتنقير في شعر شعراء الجاهلية الوثنيين، لم أجد هذه الكلمة أو صيغها المختلفة تستعمل في سياق ديني؛ أي أن مدلولها كان دنيوياً لا دينياً. وشبيه بذلك الكلمتان «الإسلام والإيمان» أو «المسلم والمؤمن». وفوق ذلك، لم أجد في الشعر الجاهلي تقابلاً بين الكفر والإيمان أو الإسلام؛ أي أن مفهوم كلمة «كفر» لم يكن نقيضاً لمفهوم هاتين الكلمتين كما هو الشأن في الاستعمال القرآن الذي كثيراً ما يؤكد التناقض بين الإيمان/ الإسلام والكفر. وهذا التعارض كان أهم مشكلة واجهت الجماعة الإسلامية الناشئة، عندما كان الرسول (ﷺ) في قلّة من أصحابه يجاهدون لنشر الدين الجديد وتثبيت دعائمه؛ ولذا كانت المعركة معركةً بين المسلمين والكفار؛ ووجد المرء نفسه مدفوعاً إلى أن يقرر ما إذا كان يختار الإسلام أو الكفر. ولم يكن يُتصوّر أحد كافراً في الجماعة الإسلامية

١- المفردات في غريب القرآن (كفر)، لسان العرب (كفر).
٢- شرح ديوان لبيد/ ٣٠٩.
٣- ديوان عامر بن الطفيل/ ٥٢.
٤- ديوان الطفيل الغنوي/٦٦.

الأولى ما دام يؤمن بوحدانية الله ويشهد أن محمداً (ﷺ) رسول الله.

ولم تمض مدة طويلة حتى اعتنق غالبية أهل الجزيرة العربية الإسلام، ثم كانت حركة الفتح العظيمة وما صاحبها من دخول أمم وجماعات من حضارات مختلفة في الإسلام؛ الأمر الذي أدى إلى حدوث تغير كبير في خريطة العالم الثقافية. وظهر إلى جانب التناقض الذي ذكرناه تناقض من نوع جديد شغل به المفكرون، وطغى على التناقض الأول. وهووإن بقي في ظاهره شبيهاً بالتناقض الأول، إلا أنه انداح ليدخل في صميم الجماعة الإسلامية نفسها، كما سأبيّن.

لقد أدى ظهور فرقة الخوارج إلى بروز التعارض بين المسلم والكافر، وهو تعارض لم يعد معنياً بالاختلاف بين المسلم الموحد والوثني المشرك، ولكنه أصبح متعلقاً بالتفريق بين المسلمين أنفسهم؛ لأن الخوارج رأوا أنه إذا ارتكب المسلم كبيرة لم يعد مسلماً، ولكنه يخرج من دائرة الإسلام ليدخل في دائرة الكفر؛ ولذا يصبح قتله مشروعاً. ويمكن أن نتصور خطورة هذا المبدأ إذا تذكرنا أن مفهوم «مرتكب الكبيرة» نفسه مختلف فيه؛ ولذا فمن الممكن أن يتسع مجاله، ومن الممكن أن يضيق وفقاً لانتماء المرء المذهبي، أو للفرقة الدينية التي ينتمي إليها. وإذا كانت الفرق الإسلامية الكبيرة قليلة، فقد تفرع عنها فرق كثيرة جداً اشتد الخصام بين بعضها حتى داخل الفرقة الكبيرة نفسها.

ومعروف أن الخوارج الأُوَل لم يكونوا متكلمين أو فقهاء، بل إننا لا نجد في صفوفهم صحابياً واحداً من الأنصار أو المهاجرين. وهم قد وصفوا في بداية أمرهم بأنهم من أعاريب بكر وتميم [١]. ومن المفيد أن نلحظ هنا أن القرآن الكريم لا يقابل بين الإيمان والإسلام إلا في آية واحدة تتعلق بالأعراب: «قالت الأعراب آمنا، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم [٢]».

ويُلحظ أن أهم المبادئ التي تبناها الخوارج الأُوَل كانت وثيقة الاتصال بالحالة السياسية أنذاك. وقد كُتب لهذه المبادئ أن تتطور، فيما بعد، لتصبح من النظريات الكلامية التي دار حولها جدل كبير لما لها من أهمية دينية. لقد كانت مشكلة الإمامة أو الخلافة هي المشكلة الأولى التي

١- تاريخ الطبري ٥/٦٦

٢- سورة الحجرات : ١٤

واجهت المسلمين بعيد انتقال الرسول (ﷺ) إلى الرفيق الأعلى. وكان السؤال هو: من يجب أن يكون خليفة؟ بل إن إضافة اللقب «خليفة» لم تكن موضع اتفاق بين المسلمين كافّة فهل هو خليفة الله أو خليفة رسول الله؟ وتذكر بعض الروايات أن أحدهم خاطب أبا بكر بخليفة الله، فرفض ذلك وقال: أنا خليفة رسول الله (ﷺ)، وأنا راضٍ به، وأنا راض به، وأنا راض به» [1]. وفي تفسير ذلك، يقول ابن حزم: «فقد اتفق هؤلاء الذين شهد الله لهم بالصدق وجميع إخوانهم من الأنصار، رضي الله عنهم، على أن سمّوه خليفة رسول الله، صلى الله عليه وسلم. ومعنى الخليفة في اللغة هو الذي يستخلفه، لا الذي يخلفه دون أن يستخلفه هو. لا يجوز غير هذا البتّة في اللغة بلا خلاف، تقول: استخلف فلان يستخلفه فهو خليفته ومستخلفه، فإن قام مكانه دون أن يستخلفه هو لم يُقل إلا خلف فلان فلاناً يخلفه فهو خالف» [2]. وابن حزم يسوق هذا النص في معرض إثباته شرعية خلافة أبي بكر التي أنكرتها بعض الفرق. وإذا كانت مسألة الأحق في الخلافة قد حُلّت بسرعة في المرة الأولى، فإنها بعد مقتل عثمان عادت جذعة فقسمت المجتمع الإسلامي، حين ظهرت، ثلاث فرق رئيسية: فرقة الشيعة التي رأت أن علياً وحده هو صاحب الحق في الخلافة، وفرقة الأمويين التي رأت الحق لمعاوية، وفرقة الخوارج التي لم تر حقاً لعلي ولا لمعاوية، وجوّزت، في بداية أمرها، أن لا يكون في العالم إمام أصلاً [3]. وهذا الرأي تبنّته، فيما بعد فرقة النجدات. أما بقية الخوارج، فقد عدلوا عن هذا الرأي بسرعة فاختاروا خليفتهم الأول عبد الله بن وهب الراسبي [4]، ورأوا أن أي مسلم يجتمع فيه العلم والزهد يستحق الخلافة ولو كان نبطياً [5]. ويُذكر أن معاذ بن جوين الطائي قال في هذا الشأن: « وإنما ينبغي أن يلي على المسلمين، إذا ما كانوا سواء في الفضل، أبصرهم بالحرب وأفقههم في الدين وأشدهم اضطلاعاً بما حمل» [6]. ويصف الشهرستاني الدور الخطير لمنصب الإمامة في الحياة الإسلامية بقوله: «وأعظم خلاف في الأمة خلاف الإمامة،

١- مسند ابن حنبل ٢٣/١، وأنظر، مقدمة ابن خلدون / ٥٧٩.
٢- الفصل في الملل والأهواء والنحل ١٠٧/٤.
٣- الملل والنحل/ ١١٦
٤- مقالات الإسلاميين ٢١٠/١، شرح نهج البلاغة ٣٠٧/١، وانظر الخوارج في العصر الأموي/٢١٤ وما بعدها
٥- الملل والنحل / ١١٦ ، تلبيس إبليس /١١١
٦- تاريخ الطبري ١٧٥/٥

إذ ما سُلّ سيف في الإسلام على قاعدة دينية، مثل ما سُلّ على الإمامة في كل زمان»[1]. وهو قول يتنبه على الصبغة الدينية القوية التي اصطبغت بها هذه الفرق أو الأحزاب «فصار كل حزب سياسي فرقة دينية، وصار الذين يقتتلون سياسياً يقتتلون دينياً، وبدل أن يتسمى الحزب اسماً سياسياً يدل على المبدأ السياسي الذي يدعو إليه تسمّى اسماً يدل على المذهب الديني : كشيعة وخوارج ومرجئة، وبدل أن يتحاجّوا بما ينتج عن أعمالهم من مصالح ومفاسد تحاجّوا بالكفر والإيمان والجنة والنار»[2]. وهكذا، سيطر الديني على السياسي. ولمزيد من التوضيح، لابد من التنبيه على الطريقة التي أثار بها الخوارج مشكلة التّكفير، وهم أول من فعل ذلك من الفرق الإسلامية؛ فإنهم في محاولتهم إدانة خصومهم من شيعة وأمويين، أثاروا المسألة من ناحية اتبع علياً أكافر أم مؤمن، ومن اتبع من اتبع معاوية أكافر أم مؤمن[3]؟ وكان جوابهم بالطبع كالتالي: علي ومعاوية ومن تبعهما كفار لأنهم ارتكبوا كبيرة. وعلى مستوى نظري أكثر تجريداً، فإن السؤال نفسه يمكن أن يتخذ الشكل التالي: هل يبقى مرتكب الكبيرة مؤمناً، أو أنه منذ ارتكابه الكبيرة كافراً تماماً؟ وهكذا ظهرت على السطح مشكلة كلامية دار حولها جدل كبير بين الفرق، فيما بعد؛ أعني مشكلة مرتكب الكبيرة وما تفرع عنها كالسؤال المهم حول الفعل الذي يجعل الإنسان مرتكب كبيرة. وكان من نتائج هذا السؤال أن ثارت مناقشات كلامية حول الفَرْق بين الإيمان والكفر. وليس من الصعب على من يتتبع حركة الخوارجأن يلحظ أنهم لم يُنَظِّروا للإيمان أو الكفر، ولكن انصبت عنايتهم على تحديد من هو الكافر؛ وذلك نتيجة اهتمامهم الأصلي بداية بالسياسة. وهذا يبدوا واضحاً من حرصهم آنذاك على تكفير أناس بأعينهم ومحاولة عزلهم عن بقية المجتمع المسلم. ويؤكد هذا الحرص ما يذكره البغدادي على أنه مبدأ تجتمع عليهجميع الخوارج؛ إذ يروي رأيين متشابهين، مع اختلاف بسيط، أحدهما للكعبي والثاني للأشعري: «ذكر الكعبي في مقالاته أن الذي يجمع الخوارج على افتراق مذاهبهم إكفار علي وعثمان والحكمين وأصحاب الجمل وكل من رضي بتحكيم الحكمين، والإكفار بارتكاب الذنوب، ووجوب الخروج

١- الملل والنحل / ٢٢.
٢- ضحى الإسلام ٣/ ٥
٣- المصدر نفسه/٥٥ - ٥٦

على الإمام الجائر. وقال شيخنا أبو الحسن [الأشعري]: الذي يجمعها إكفار علي وعثمان وأصحاب الجمل ومن رضي بالتحكيم وصوّت الحكمين أو أحدهما، ووجوب الخروج على السلطان الجائر، ولم يرض ما حكاه الكعبيّ من إجماعهم على تكفير مرتكبي الذنوب» [1]. ثم يعلق البغدادي على هذين الرأيين بقوله: «الصواب ما حكاه شيخنا أبو الحسن عنهم، وقد أخطأ الكعبي في دعواه إجماع الخوارج على مرتكبي الذنوب منهم؛ وذلك أن النّجدات من الخوارج لا يكفرون أصحاب الحدود من موافقتهم. وقد قال قوم من الخوارج: إن التكفير إنما يكون بالذنوب التي ليس فيها وعيد مخصوص، وقد قال قوم من الخوارج: إن التكفير إنما يكون بالذنوب التي ليس فيها وعيد مخصوص فأما الذي فيه حدّ أو وعيدفي القرآن فلا يزاد صاحبه على الاسم الذي ورد فيه مثل تسميته زانياً وسارقاً ونحو ذلك. وقد قالت النّجدات إن صاحب الكبيرة من موافقتهم كافر نعمة وليس فيه كفر دين، وفي هذا بيان خطأ الكعبي في حكايته عن جميع الخوارج تكفير أصحاب الذنوب كلهم منهم ومن غيرهم» [2] وهكذا، فالاختلاف بين الكعبي (ت٣١٩هـ) وأبي الحسن الأشعري (ت. ٣٣٠هـ) هو أن الثاني أدقّ من حيث استثناؤه النّجدات من تكفير مرتكب الكبيرة. وهو يقول في كتابه « مقالات الإسلاميين »، في معرض حديثه عن مقالات الخوارج: «وأجمعوا على أن كل كبيرة كفر، إلا النّجدات فإنها لا تقول ذلك. وأجمعوا على أن الله. سبحانه . يعذّب أصحاب الكبائر عذاباً دائماً، إلا النّجدات فرقةً مستقلّة، كانوا على القول بتكفير صاحب الكبيرة. وتُنسب لعلي خطبة أنكر فيها على الخوارج رأيهم هذا، وبيّن تهافته فأعلمهم بأنه لو كان مرتكب الكبيرة كافراً لما صلى عليه النبي (ﷺ)، ولما أحلّ له وراثة المسلم، أو نكاح المسلمات، أو أخذ نصيبه من الفيء [3]. والمهم أن نلحظ هنا أن التفكير كان الأصل الأول، والمبدأ الرئيس لحركة الخوارج الأُوَل، الذين عرفوا بالمحكّمة الأولى [4]، وكانوا، قبل خروجهم، من أتباع علي، وقد جاءتهم هذه التسمية من من الشّعار الذي رفعوه عندما قبل علي بالتحكيم؛ إذ قالوا: «لا حكم إلا لله، ولا حكم للرجال» [5]. وواضح أنهم أخذوا هذا افلشعار من بعض الآيات القرآنية، كقوله

١- الفرق بين الفرق /٥٥

٢- المصدر نفسه/ ٥٥ – ٥٦

٣- مقالات الإسلاميين: ١٦٨/١

٤- الفرق بين الفرق / ٥٦، الملل والنحل / ١١٥، صبح الأعشى ٢٢٤/١٣.

٥- خطط المقريزي ١٧٨/٤.